الباب الخمسون
في الأسفار والاغتراب وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، فقد قال الله تعالى: ﴿هو الذي جعلَ لكُمُ الأرضَ ذلولاً﴾[1] وفي الأثر: سافروا تغنموا. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود، والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه فقال يوماً:

ألا خلِّني أمضي لشأني ولا أكُنْ ... على لأهل كلاّ[2] إن ذا لشديدُ
تهيبني ريبُ المنونِ ولم أكُنْ ... لأهربَ عما ليس منه محيدُ
فلو كنتُ ذا مالٍ لقربَ مجلسي ... وقيل إذا أخطأتَ أنتَ رشيدُ
فدَعْني أجولُ[3] الأرضَ عمري لعله ... يُسرُّ صديقٌ أو يغاظَ حسودُ

وقال رسول الله ﷺ: لا «عليكم بالدلجة[4] فإن الأرض تطوى بالليل، ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رفقة. وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب» وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان[5] النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار في ليلة مسافة ثماني ليال فضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

همَمْنَا بالإقامةِ ثم سِرْنا ... مسيرَ حذيفةِ الخيرِ بنِ بَدْرِ

وسار ذكوان مولى عمر رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة. وقال المأمون: لا شيءَ ألذَّ من السفر في كفاية وعافية لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها، وتعاشر قوماً لم تعرفهم. ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان.

---

(١) سورة: الملك، الآية: ١٥.
(٢) كلاّ: عالةً.
(٣) أجولُ: أسيح.
(٤) الدلجة: المشي ظلمة.
(٥) هجان: نوقه.

قال الفرزدق:

وفي الأرضِ عن دارِ القِلى[١] متحوّلٌ ... وكلُّ بلادٍ أوطنَتْكَ[٢] بلادُ

وقال اخر:

وما هي إلا بلدةٌ مثلُ بلدتي ... خيارهما ما كان عوناً على دهري

وقال آخر:

وإذا البلادُ تغيَّرت عن حالها ... فدَعِ المقامِ وبادِرِ التحويلا
ليس المقامُ عليك فرضاً واجباً ... في بلدةٍ تَدَعُ العزيزَ ذليلاً

وقال الصفي الحلي:

تنقَّلْ فَلَذَّاتُ الهَوَى في التنقُّل ... وَرُدْ[٣] كلَّ صافٍ لا تَقِفْ عند منهلِ[٤]
ففي الأرضِ أحبابٌ وفيها منازلٌ ... فلا تبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
ولا تستَمِعْ قول امرىء القَيْسِ إنه ... مُضِلٌّ ومَنْ ذا يهتدي بمضللِ

وقال عبد اللّه الجعدي:

فإن تَجْفُ عني أو تزُرْني إهانةً ... أجِدْ عنك في الأرضِ العريضةِ مذهباً

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء، قال جرير:

لو كنتُ أعلمُ أن أخرَ عهدِكم ... يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: ما كانت جدّك صانعاً في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقلع عينيه حتى لا يرى مظعن[٥] أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وَجْدُ مغلولٍ بصنعاءَ موثقٌ ... بساقيهِ من ماءِ الحديدِ كَبُولُ[٦]
قليلُ الموالي مسلمٌ بجزيرةٍ ... له بعد نوماتِ العيون أليلُ
يقولُ له الحدّادُ أنتَ معذَّبٌ ... غداةَ غدٍ أو مسلمٌ فقتيلُ
بأكبرَ مني لوعةً يومَ راعني ... فراقُ حبيبٍ ما إليه سبيلُ

وقال الشاعر:

وما أمُّ خشفٍ طولَ يومٍ وليلةٍ ... ببلقعةٍ بيداءَ ظمآن صاديا
تهيمُ ولا تدري إلى أين تبتغي ... مولهةٌ حزناً تجوزُ الفيافيا[٧]

---

(١) القلى: البغض.
(٢) أوطنتك: جعلتك مواطنها.
(٣) وَرُدْ: زر.
(٤) منهل: موضع الشرب.
(٥) مظعن: وقت رحيلهم.
(٦) كبول: أغلال.
(٧) الفافيا: القفار والصحارى.

obeikandl.com

أضرَّ بها حرُّ الهجيرِ فلم تجد ... لغلّتها[1] من باردِ الماءِ شافيا
إذا بعدَتْ عن خشفها انعطفَتْ له ... فألفَتْهُ ملهوفَ الجوانحِ طاويا
بأوجعَ مني يومَ شدُّوا حمولهم ... ونادَى منادي البَيْن أن لا تَلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك؟ ال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله بالكِ على أحبابه جزعاً ... قد كنتُ أحذرُ هذا قبلَ أن يقعا
ما كان والله شؤمُ الدهر يتركُني ... حتى يجرَّ عني[2] من بعدِهم جرعا
إن الزمانَ رأى إلفَ السرورِ لنا ... فدبَّ بالبَيْنِ فيما بيننا وسَعَى
فليَصْنَعِ الدهر بي ما شاءَ مجتهدا ... فلا زيادة شيء فوقَ ما صنعا

فقال: والله لأعينك، وأعطاه / ١٠/ آلاف دينار.

وقال آخر:

وقفتُ يومَ النوى منهم على بُعُدِ ... ولم أوَدِّعْهُمُ وجداً وإشفاقا
إني خشيتُ على الأظعانِ من نفسي ... ومن دموعي إحراقاً وإغراقا

وقال عمر بن أحمد:

أتى الرحيلُ فحين جدَّ ترحَّلَتْ ... مُهَجُ النفوسِ له عن الأجسادِ
من لم يَبِتْ والبينُ يصدعُ قلبَهُ ... لم يدرِ كيف تفتُّتُ الأكبادِ

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به، وقال: ألِمثلي يقال أحسنت؟ ففررنا منه، فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا أحسنت، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخُوا قبيلَ الصبحِ عيسهمو[3] ... وَحَمَّلُوهَا وَسَارَتْ بالدُّمى الإبِلُ
وقلَّبَتْ بخلالِ السُّجْفِ ناظرَهَا ... يرنُو إليّ ودمعُ العينِ ينهمِلُ
ووَدَّعَتْ ببنانٍ زانَهُ عَنَمٌ ... نادَيتُ لا حَمَلَتْ رِجْلاكَ يا جَمَلُ
يا حاديَ العيسِ عرِّجْ كي أوَدِّعَهم ... يا حادي العيسِ في ترحالِكَ الأجَلُ
إني على العهدِ لم أنقُضْ مودَّتَهم ... يا ليتَ شعري لطولِ البعدِ ما فعلُوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت. ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى:

لما علمتُ بأنَّ القومَ قد رحلوا ... وراهبُ الديرِ بالناقوس مشتغلُ
شبكتُ عشري على رأسي وقلتُ له ... يا راهبَ الديرِ هل مَرَّتْ بكَ الإبلُ

(١) لغلّتها: عطشها.
(٢) يجرَّ: يسقيني.
(٣) العيس: النوق.

فحنَّ لي وبكى بل رقَّ لي ورثى ... وقال لي يا فتى ضاقَتْ بك الحيلُ
إنَّ الخيامَ التي قد جئتَ تطلبهم ... بالأمسِ كانوا هنا والآن قد رحلُوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى:

ما رحلُوا يومَ ساروا البزل العيسا[1] ... إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
من كلِّ فاتكةِ الألحاظِ مالكةٌ ... تخالها فوقَ عرشِ الدرِّ بلقيسا
إذا تمشَّت على صرحِ الزجاج ترى ... شمساً على فلكٍ في حجرِ إدريسا
أسقفةٌ[2] من بناتِ الروم عاطلة ... ترَى عليها من الأنوارِ ناموسا
وحشيةٌ ما لها أنسٌ قد اتَّخذَتْ ... في بيتِ خلوتها للذكرِ ناووسا[3]
إن أومأت تطلبُ الإنجيلَ تحسبهم ... قساوساً أو بطاريقاً شمامسا[4]
نادَيْتُ إذ رحلوا للبين ناقَتَهَا ... يا حادي العِيس لا تحدو بها العيسا
غَيَّبْتُ أجنادَ صبري يوم بَيْنِهِمُ ... على الطريقِ كراديساً كراديسا[5]
ساروا وأصبَحْتُ أنعي الربعَ بعدهمو ... والوجدُ في القلبِ لا ينفكُّ مغروسا

وقال آخر:

ولما تبدَّت للرحيلِ جِمالُنا ... وجدَّ بنا سيرٌ وفاضَتْ مدامعُ
تبدَّتْ لنا مذعورةً من خبائها ... ونَاظِرُها باللؤلؤ الرطبِ دامعُ
أشارَتْ بأطرافِ البنانِ وودَّعَتْ ... وأومَتْ بعينيها متى أنتَ راجعُ
فقلت لها والله ما مِن مسافرٍ ... يسيرُ ويدري ما بهِ الله صانعُ
فشالَتْ نقابَ الحسنِ من فوقَ وجهها ... فسالتْ من الطرفِ الكحيلِ مدامعُ
وقالت إلهي كُنْ عليه خليفةً ... فيا ربُّ ما خابَتْ لديكَ الودائعُ

وقال آخر:

يا راحلاً وجميلُ الصبر يتبعُهُ ... هل من سبيلٍ إلى لقياكَ يتفقُ
ما أنصفَتْكَ دموعي وهي دامية ... ولا وَفَى لك قلبي وهو يحترقُ

وقال البغدادي:

قالَتْ وقد نالها للبَيْنِ أوجعُهُ ... والبينُ صَعْبٌ على الأحبابِ موقعُهُ
اجعَلْ يديكَ على قلبي فقد ضعفَتْ ... قواهُ عَنْ حَمْلِ ما فيه وأضلعُهُ
واعطُفْ على المطايا ساعةً فعسى ... مَنْ شَتَّتَ شملَ الهوى بالبين يجمعُهُ

---

(١) العيسا: النوق الشعب.
(٢) أسقفة: درجة كهنوتية وقد ورد في الأبيات حسب التسلسل.
(٣) ناووسا: قبراً.
(٤) شمامسا: شماس ـ قسيس ـ أسقف مطران ـ بطريق.
(٥) كراديسا: الكتيبة من الجند.

كـأنني يـومَ ولَّـتْ حسـرةً وأسـى ... غـريـقُ بحـرٍ يـرى الشـاطـىء ويمنعُـهُ

وقال ابن البديري:

قِفَـا حـادِيَـيْ ليلـى فـإنـيَ وامـقٌ[1] ... ولا تعجـلا يـومـاً علـى مَـنْ يفـارقُ
وزمـا مطـايـاهـا قبيـلَ مسيـرهـا ... ليلتـذَّ منهـا بـالتـزوُّدِ عـاشـقُ
ولا تـزجـروا[2] بـالسـوقِ أظعـانَ عِيسهـا ... فـإنَّ حبيبـي للظعـائـنِ سـائـقُ
ولمـا التقَيْنـا والغـرامُ يُـذيبهـا ... ونحـنُ كـلانـا فـي التفكُّـرِ غـارقُ
وقفنـا ودمـع العيـن يحجـبُ بيننـا ... تُسـارِقُنـي فـي نظـرةٍ وأسـارقُ
فـلا تسـألا مـاحـلَّ بـالبيـن بيننـا ... ولا تعجَبَـا إنـا مشـوقٌ وشـائـقُ

وقال أيضاً:

تـذكـرتُ ليلـى حيـن شـطَّ مـزارُهـا[3] ... وعـادَتْ منـازُلهـا خليـلاتٌ بلقـع[4]
بكيـتُ عليهـا والقنـا يقـرعُ القنـا ... وسُمْـرُ العـوالـي للمنـايـا تشـرَّعُ
وخـالفـتُ لـوامـي عليهـا وعـذلـي ... وحـالفـتُ سُهـدي والخليُّـون هُجَّـعُ
ولـم أستطـع يـومَ النـوى ردَّ عبـرةٍ ... فـؤادي أسـى مـن حـرِّهـا يتقطَّـعُ
فقـالَ خليلـي إذ رأى الـدمـعَ دائمـاً ... يفيـضُ دمـاً مـن مقلتـي ليـس يـدفـعُ
لئِـنْ كـانَ هـذا الـدمـعُ يجـري صبابـةً ... علـى غيـرِ ليلـى فهـو دمـعٌ مضيـعُ

وقال آخر:

مـددتُ إلـى التـوديـعِ كفًّـا ضعيفـةً ... وأخـرى علـى الـرمضـاءِ فـوقَ فـؤادي
فـلا كـانَ هـذا آخـرَ العهـدِ منكمـو ... ولا كـانَ ذا التـوديـعُ آخـر زادي

وقال آخر:

ولمـا وقفنَـا للـوداعِ عشيَّـةً ... وطـرفـي وقلبـي دامـعٌ وخفـوقُ
بكيـتُ فـأضحَكْـتُ الـوشـاةَ شمـاتـةً ... كـأنـي سحـابٌ والـوشـاةُ بـروقُ

ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

يـا سـادةً فـي سـويـدِ القلـبِ مسكنهـم ... وفـي منـامـي أرى أنـي أعـانقهـم
أوحشتمـونـا وعـزُّ الصبـرِ بعـدكمـو ... يـا مَـنْ يعـزُّ علينـا أن نفـارقهـم

وقال آخر:

لـو أن مـالـك عـالـمٌ بـذُرَى الهـوى ... ومحلُّـه مـن أضلـعِ العشـاقِ

---

(١) وامقٌ: محب.
(٢) تزجروا: النهي.
(٣) مزارُها: بعُد موضعها.
(٤) بلقع: قفر لا حياة فيها.

ما عذبَ العشاقَ إلاَّ بالهوى ... وإذا استغاثوا غائَهُم بفراقِ

وقال ابن الوردي:

دهرُنا أضحى ضنيناً ... باللقا حتى ضنينا[1]
يا ليالي الوصلِ عُودي ... إجمعينا أجمعينا[2]

وقال الشريف الرضي.

علّلاني بذكرهم واسقياني ... وامزجا لي دمعي بكأسٍ دهاقِ[3]
وخُذا النومَ من جفوني فإني ... قد خلعتُ الكرى على العشاقِ

وقال آخر عند ذلك:

قالوا أترقدُ إذا غبنا فقلتُ لهم ... نَعَمْ وأشفُقُ من دمعي على بَصَري
ما حقُّ طرفٍ هداني نحو حسنكمو ... أني أعَذِّبُهُ بالدمعِ والسَّهَرِ

وقال الموصلي:

فسدَتْ لطولِ بعادِكم أحلامُنا ... وعقولُنا وجفا الجفونَ منامُ
والطيفُ قد وعَدَ الجفونَ بزورةٍ ... يا حبَّذا إن صحَّتِ الأحلامُ

ومما قيل في البكاء. قال الشاعر:

رجَوْتُ طيفَ خيالِه ... وكيفَ لي بهجوعِ
والذارياتُ جُفوني ... والمرسلاتُ دمُوعي[4]

وقال آخر:

ارحَمْ رَحِمْتَ للَوْعَتي ... وابعَثْ خيالَكَ في الكَرَى
ودموعُ عيني لا تسَلْ ... عن حالها يا ما جَرَى

وقال آخر:

إن عَيني مُذْ غابَ شخصُك عنها ... يأمرُ السهدَ في كراها وينهى
بدموعٍ كأنهنَّ الغوادي ... لا تَسَلْ ما جرى على الخدِّ منها

وقال آخر:

يا قلبُ صبراً على الفراقِ ولو ... روّعت ممن تحبّ بالبينِ
وأنتَ يا دمعُ إن ظهَرْتَ بما ... أخفيه من قلبي سقَطْتَ من عيني

---

(١) ضنيناً: بخيلاً.
(٢) أجمعينا: لُمي شملنا جميعاً.
(٣) دهاق: قدح ممتلئة.
(٤) دموعي: الذاريات ـ المرسلات سور قرآنية.

وقال آخر:

خاضَ العواذلُ في حديثِ مدامعي ... لما غدا كالبحرِ سرعةُ سيرِهِ
فحبستُهُ لأصون سرَّ هواكمو ... حتى يخوضُوا في حديثِ غيرِهِ

وقال ابن الموّاز:

رحتُ يومَ الفراق أجري دموعي ... حسرةً إذ قَضَى الفراقُ بَيْنِي
قيلَ كم ذا تجري دموعُك تعمى ... أوْقِفِ الدمعَ قلتُ من بَعْدِ عَيْنِي

وقال آخر:

لما لبستُ لبُعْده ثوبُ الضنى ... وغدَوْتُ من ثَوْبِ اصطباري عاريا
أجرَيْتُ وَقْفَ مدامعي من بعدِهِ ... وجعَلْتُه وقفاً عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أرَ مثلي غارَ مِن طولِ ليله ... عليه كأنّ الليلَ يعشُقُه معي
وما زلتُ أبكي في دُجَى الليلِ صبوةً ... مِنَ الوجد حتى أبيضَّ من فَيْضِ أدمعي

وقال الموصلي:

عينٌ أفاضَتْ دُمُوعي ... لطولِ صدٍّ وبَيْنِ
ووجنةُ الخدِّ قالَتْ ... رأيتُ غسلي بعيني

وقال آخر:

وما فارَقْتُ ليلى من مرادٍ ... ولكن شقوة بلغَتْ مداها
بكيتُ نعم بكيتُ وكل إلفٍ ... إذا ماتَتْ حبيبتُهُ بكاها

وفي بعض الكتب السماوية: إنَّ مما عاقبت به عبادي أن ابتليتهم بفراق الأحبة.

ومما جاء في الحنين إلى الوطن؛ أما محبة الوطن فمستولية على الطباع، مستدعية أشد الشوق إليها. روي أن أبان قدم على النبي ﷺ، فقال: يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر[1] وقد أعذق، والنمام[2] وقد أورق. فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ. وقال بلال رضي الله تعالى عنه:

ألا ليتَ شِعري هلا أبيتنّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذخر وجليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ ... وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ[3]

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقة، وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ومن حبّ الوطن؛ ما حكي أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فمنع

---

(١) الإذخر: من النباتات نافذة الرائحة.
(٢) النمام: من النباتات نافذة الرائحة.
(٣) طفيل: جبال بوطن الشاعر.

أهل مصر أولياءه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدّسة. وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلا الروم حباً لوطنه. واعتلّ سابور ذي الأكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته: م تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشمة من تراب إصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب، وقالت له هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته. وقال الجاهظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بـلادٌ ألفنـاهـا علـى كـلِّ حـالـةٍ وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسَنْ
ونستعـذبُ الأرضَ التـي لا هـواءَ بهـا ولا مـاؤهـا عـذبٌ ولكنهـا وطَـنْ

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال: يجرها درّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وقال عبد اللّه بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران. وكان يقال: البصرة خزانة العرب، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها، واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزاً. وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية، وأنا أقول: مصر كنانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذمّ السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

وقال بعضهم:

كـلُّ العـذابِ قطعـةٌ مـن السفـر يـا ربُّ فـارددنـا علـى خيـرِ الحضـر

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومرّ إياس بن معاوية بمكان فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته وشدّة نباح غيره. وأراد أعرابيّ السفر فقال لامرأته:

عـدّي السنيـنَ لغيبتـي وتصبّـري وذري الشهـور فـإنهـنّ قصـارُ

فأجابته:

فـاذكـر صبـابتنـا إليـكَ وشـوقنـا وارحَـمْ بنـاتَـك إنهـنَّ صغـارُ

فأقام وترك السفر، ويقال: ربّ ملازم لمهنته فاز ببغيته. وقال ابن الهيثم:

لَعَمْـرُكَ مـا ضـاقَـتْ بـلادٌ بـأهلهـا ولكـنّ أخـلاقَ الـرجـالِ تضيـقُ

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.